الشيخ محمد علي التسخيري
فارس المنابر العالمي
في سبيل التقارب والوحدة

الشـــيخ د. جعفـــر المهـــاجر

ترجع معرفتي بشيخنا التسخيري ، أمدّ الله تعالى بعمره في خير وعافية ، إلى أواسط العِقد الثاني من هذا القرن الهجري / أواسط ثمانينات القرن الميلادي الماضي ، حيث أُتيح لي أن أشارك بعدد من المؤتمرات التي تولّى هو الدعوة إليها وتنظيمها وإدارتها. وذلك تأسيساً على تعارف غير وثيق تمّ في رحاب " النجف الأشرف " ، التي جمعتنا في فترة الشباب الأُولى . هو بحكم المولد والنشأة ، وأنا بحكم الهجرة . وكان تعارفاً من النمط الذي يحصل بين طالبين جمعتهما حوزة " النجف الأشرف " الجليلة ، التي كانت آنذاك تتربّع على القمّة التي هبطت عنها بعد ذلك بسرعة . تجمع في رحابها آلاف الطلاّب ، القادمين من شتّى أنحاء "إيران" و "الهند" و"سورية" و "لبنان" و "العراق" ، فضلاً عن جاليات أقلّ عدداً قادمة من غيرها . وتنعُم بالحضور الباهر لمجموعة غير مسبوقة من كبار أساتذة الفقه وأصوله . نذكر منهم : السيد محسن الحكيم ، والسيد أبو القاسم الخوئي ، والسيد عبد الهادي الشيرازي . فضلاً عن عشرات من الأساتذة من الدرجة الثانية كالشهيد السيد محمد باقر الصدر ، والشيخ محمد رضا المظفّر ، والسيد محمد تقي الحكيم . ولكن وحشيّة نظام طاغية "العراق" مدّت يدها السوداء إلى هذه الحاضرة العلميّة الجليلة فدمّرتها تدميرا . وتفرّق الناجون من بطش الطاغية في البلدان . وكان شيخنا التسخيري أحد الذين ألجأتهم إلى مغادرة "النجف" والأوب إلى الوطن .

أثناء مشاركتي في المؤتمرات التي تُعقد في الجمهورية الإسلامية ، وينظّمها ويُديرها الشيخ التسخيري ، لم أكن بحاجة إلى الكثير من دقّة الملاحظة لكي أكتشف أنها تمتاز عن غيرها بأمرين اثنين :

الأول : التنظيم المُحكم الدقيق ، بحيث أن المُشارك يلمس أن أدنى التفصيلات المتعلّقة بأعمال المؤتمر وبشؤون المشاركين فيه هي تحت رعاية دقيقة ، وأنه لا مكان إطلاقاً للصُدفة والارتجال .

* * * *

بعودته إلى الوطن اندمج شيخنا التسخيري في مشروع الجمهورية الإسلامية . وبرزت كفاءاته الاستثنائية في الحقلين الإداري والفكري . وما عتّم أن غدا من رجال الصف الأول المُحيط بقيادتها الرشيدة ، المتمثّلة ، بعد التحاق الإمام المؤسس رضوان الله عليه بالرفيق الأعلى ، بالإمام الخامنه أي أعزّه الله . ومن العسير التبسّط في الكلام على أعماله وإنجازاته في مختلف المناصب العالية التي شغلها . فذلك أوسع من أن تُحيط به مقالة . وسنكتفي بالوقوف بقدر ما يتسع له المقام على إدارته لأعمال (المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية) ، الذي يشغل الآن منصب أمينه العام .

* * * *

من المعلوم أن مسألة التقريب بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم هي من المبادئ الأساسية التي أعلنتها الجمهورية الإسلامية منذ اللحظات الأولى لتأسيسها . وكان الإمام المؤسّس قدس سرّه يولي هذه المسألة أعظم الاهتمام . ومن أفكاره النيّرة في هذا النطاق

إعلان المدّة الواقعة بين ١٢ و ١٧ من شهر ربيع الأول من كل عام أسبوعاً للوحدة الإسلامية . ليحتفل به المسلمون أينما كانوا بذكرى المولد النبوي الشريف . وبذلك عكس الاتجاه الخلافي على تاريخ المولد ، الذي كان مظهراً من مظاهر الاختلاف بين الشيعة والسنّة ، ليكون مظهر وحدة تدور على ذكرى جامعة . وسبباً من أسباب التذكير الدائم بها .

ثم جاء تأسيس (المجمع العالمي للتقريب) بمبادرة من الإمام الخامنه أي ليكون المؤسسة المتخصصة في معالجة الإشكاليات الفكرية والعمليّة المذهبيّة المتراكمة خلال التاريخ . بحيث غدت إشكاليات مُزمنة ، خارج حدود أي نقاش في إطار كل مذهب من المذاهب . ولكنها من منظور تقريبي / توحيدي شروخ في الجسد الإسلامي الواحد ، يتجدّد التذكير بها في كل يوم . مما يجعلها أشبه بدم جديد يُضخّ في حالة الفرقة ، ويمنحها المزيد والمزيد من القوة والتمكّن . وهذا وضع يمكن أن يتمادى إلى غير ما نهاية ، ولا سبيل إلى علاجه إلا بـ :

ـ إعادة التواصل بين علماء المذاهب ، وكسر الجدران العالية التي ارتفعت في الماضي ، وجعلت من كل مذهب دائرة مُغلقة ، يدور البحث والتأمّل خلالها بنحو منعزل تماماً عن المذاهب الأخرى . الأمر الذي يؤهّب لاتساع رقعة الاختلاف ، وُنتج أشكالاً جديدة من صنوف التمايز .

ـ تحريك الحوار على الإشكاليّات الفكريّة والعمليّة ، ابتغاء البحث عن منازعها وأسبابها التاريخيّة ، ومن ثمّ تأصيلها بالعودة إلى المصادر الأساسية ، أي الكتاب المُنزَل والسّنّة الشريفة . باعتبارهما الأمر الجامع ، والسبيل العملي الوحيد لتحقيق النهج القرآني الآمر بالاعتصام بحبل الله سبحانه وتعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا) (آل عمران / ١٠٣) .

* * * *

في كتابه القيّم (حول الوحدة والتقريب) ـ وهو مجموع من الأبحاث التي شارك بها الشيخ التسخيري في مختلف المؤتمرات الدوليّة ـ عالج قضيّة الوحدة الإسلاميّة على نحو غير مسبوق ، انصبّت على غرضين هما :

ـ الغرض الأول : تحديد " الوحدة " على مستوى المفهوم . وغني عن البيان أن تحديداً كهذا هو مقدمة وخطوة ضروريّة ، ينبغي أن تسبق أي حوار يتأسّس على هذه القضيّة الشائكة ذات الأبعاد الهائلة . وإلا فإن الحوار قد يبدأ من النقطة الغلط ، ليصل إلى غير النتائج المرجوة منه .

" الوحدة " هي تلك التي تتقوّم بأساسين :

ـ العقيدة الحيَّة . بوصفها منظومة فكريّة شاملة ، يتبنّاها جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم . وهذا هو الذي يمنحها صفة " الحياة " .

ـ أنها بوصفها هذا وشيجة / رابطة (وحدة قلوب) تنظم جميع المسلمين ، وتجعل منهم جسداً واحداً .

ومن البيّن أن " الوحدة " بهذا المعنى هي وضع مركّب ، إذا فقد أحد عنصريه انتفى كله . فالعقيدة بنفسها ليست سبباً تاماً للوحدة ، وإلا لما كان الطليعيون الغيارى من علماء المسلمين بحاجة إلى هذه الجهود في سبيل التقريب . وأيضاً فإن الرابطة العاطفيّة بذاتها مؤهّلة للسقوط عند أدنى امتحان .

ذلك التحديد الذي جمع بين البساطة والعُمق لمفهوم " الوحدة " ، يتجاوز أُطروحات توحيديّة ، تتفاوت من حيث ميادين انتشارها ، ممّا نجده لدى أحزاب سياسية (الرابطة القومية بما فيها من تاريخ مُشتَرك ولغة ومصلحة جامعة ، الرابطة الجغرافية ، المصالح الطبقيّة) ، أو تشكيلات بشريّة (قبَليّة ، إقليميّة / جغرافيّة) .... الخ .

ـ الغرض الثاني : بيان منازع وأشكال الوحدة والعمل التوحيدي في نصوص القرآن الكريم و السّنّة الشريفة والشعائر الدينيّة ، ممّا كان الحافز لعدد من كبار علماء المسلمين لبذل جهودهم في سبيل التقريب والتوحيد ، ممن عرّف بهم و نوّه بجهودهم . وبعضهم ممن خفيت أعماله في هذا الميدان . ومن الواضح أن هذا الغرض قد استنفد القسم الأكبر من الكتاب . والكتاب ، من بعد ، وثيقة في الغاية من الأهميّة ، من حيث الغنى بالأفكار ، الجامعة بين الجِدّة والعمق والشمول . و ما من ريب أنها ثمرة تجربة صاحبها الطويلة في ميادين الدعوة إلى التقريب والوحدة .

على أنني أسمح لنفسي بأن أقترح على شيخنا ، مع علمي بمسؤولياته الكبيرة ، وبمشاغله التي لا نهاية لها ، أن يُعيد النظر في صياغة الكتاب . ذلك أنه ، كما عرفنا ، قد نُشركما وُلد ، أي على نحو مقالات منفصلة ، يعالج في كلّ منها إشكالية من إشكاليات الوحدة على حدة .الأمر الذي يرى فيه الناقد أنه قد أدّى إلى إيجاز بعض النقاط الهامة منه. ربما بسبب مقتضيات المشاركة في المؤتمرات . كما أنه ، من جهة أخرى ، أثّر على تماسك الكتاب وصلابته وتسلسل أفكاره . وما من ريب أنه إذا أُتيح له ، في يوم قريب إن شاء الله ، أن يصوغ أفكار كتابه بصياغته المنهجيّة المعهودة منه في مؤلفاته الكثيرة ، ـ فإنه سيمنح المكتبة الإسلاميّة أحد أكثر الكتب أهمية في موضوعه ، إن لم يكن أهمها على الإطلاق .

* * * *

إن (المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية) ، الذي يضم في صفوفه اليوم العشرات من علماء المذاهب النابهين من مختلف دول العالم ، والذي ولَدَ المؤسسة الرائدة (جامعة المذاهب الإسلامية) ، لتضم طلاباً من مختلف المذاهب . مما يُعيد إلى الأذهان صورة السلف الصالح و هو يدور في حلقاته العلمية ، ويأخذ بعضه عن بعض ، ويسمع بعضه من بعض ، دونما أدنى حرج . مقاييسه الوحيدة هي الوثاقة والضبط وجودة الرأي والاجتهاد ، ـ هذا المجمع يُقدّم لنا إن شاء الله تعالى صورة مشرقة لمستقبل الإسلام وأهله حينما يهدمون ما بينهم من جدران ويتحدون في سبيل الخير العام لهم وللبشرية جمعاء .

وحين يكون على رأس هذا المجمع عالم جليل ، يتمتّع إلى جانب العلم الجم ودقة النظر ، بالحيوية المدهشة ، وبراعة البيان ، والإخلاص ، ومتابعة لاتكلّ ، فإننا نأخذ على محمل الجدّ إعلانه الذي يبيّن رسالته :

" النهوض بمستوى التعارف والوعي وتعميق التفاهم بين أتباع المذاهب الإسلامية . وتعزيز الاحترام المتبادل ، وتوطيد أواصر الأخوّة الإسلامية . مع تجنّب التمييز بشأن انتماءاتهم المذهبية أو القومية أو الوطنية . بغية تحقيق الأمّة الإسلاميّة الواحدة " .